أبجدية الشجن

سهيلة عزوني

أبجدية الشجن / قصص

سهيلة عزوني

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

سعيد الجزار

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠٠٢١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ١١٨- ٣

أبجدية الشجن

قصص

سهيلة عزوني

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمي .. يما.

لعلي لم أفرحك كثيرا مثلما تفعل البنات.

أهدي لك أولى منشوراتي لعلك ترضين..

هل ترضين؟

صهاريج الذاكرة

قبل البدء:

" إن الزوجيْن المحبيْن ذَوَي الوعي الممتـــد يـــشعران بـــأن علاقتهما ممتدة حتى بعد الموت؛ فهما سيلتقيان حتما في العـــالم الآخر ليواصلا ما بدآه في الدنيا من علاقة حميمة في جنة الله في الآخرة، وهذا هو أرقى مستويات الوعي الإنـــساني وأرقـــى مستويات العلاقة الحميمة."

السبت..

- أرجوكم جميعا انتهى الأمر.. سآخذه للبيت هذا قراري.

ــ يا ابنتي ألم تسمعي كلام الطبيب؟ الحالة ميئوس منـــها.. دعيه.. المستشفى أنسب مكان له .

- سآخذه للبيت.

الأحد..

صباح الخير حياتي

طلع النهار، ألا تريد أن تفتح عينيك؟

سأزيح الستائر.. استعد.. الله، يوم رائع!

تسمع صوت الطيور مبتهجة بعودتك للبيت من جديد؟ و الزنابق البيضاء، ألا تشم أريجها المنعش؟ وكأنه أنسامها الهفيفة وهي تستيقظ من جديد.

تعرف عمري؟ بعودتك استعاد البيت دفئه وألقه.

أحس أن القلب صار أكثر اتساقا مع زمن الربيع.

هل تذكر عمري بداياتنا الأولى؟

الاثنين

حبي اليوم حصة التدليك.. ستحبها؟ أعرف أنك ستحبها.. أحضرت لك زيت الخزامى.. أنت تغرم بكل ما هو طبيعي بكر..

هل تذكر — حبيبي — جزيرتنا البعيدة الكسولة؟ طبعا تذكرها.. هيا هاك يدي في يدك.. طر بي إلى هناك.. هيا نستغفل كل الأحزان ونعيش أرقى لحظات قربنا.. خذني إلى بلاد السحر، فوحدك تعرف مفاتيح خرائطها السرية..

الطعام؟غير مهم.. أنت تعرف أن قانوننا الداخلي غطى في مواده و فقراته كل الحالات العادية والاستثنائية الطارئة.. ففي حالة نضوب كل مواردنا الغذائية.. نأكل من بعضنا الـبعض حتى نفنى.. أليست طريقة رائعة للفناء؟

الذي لا تعرفه هو أنني أنوي أن أغش في هـذه الحالـة.. سأتظاهر بأني آكل ولكني في الحقيقة لن آكل.. أريدك عمري أن تكون الأبقى

الثلاثاء

نور عيني أكثرت عليك من الكلام، صح؟ طيب سـأدعك تنام.. ولكن قبل ذلك سأحكي لك حكاية قبل النوم.. هيـا ضع رأسك على حجري ودع شـهرزادك تلعـب بـشعرك الكستنائي الناعم ، وتروي لك حكاية روحين جميلتين التقتا في لحظة استثنائية من عمر الزمان.. في وقت كادت كل منهما أن تيأس من وجود روحها التوأم.. تعرفت كل منها إلى توأمهـا و في القلـب أزهـرت أغـصان شـجرة البرتقال.......................

الأربعاء..

عمري.. اليوم أريدك أن ترسمني.. موافق؟ ولا يوم من أيامنا معا رسمتني.. أنا امرأة حياتك.. بل أكثر من ذلك.. كنت تنكل بي حينما تقول لي إنني قاتلة للإلهام.. وإنني أتصارع في خيالك مع أية فكرة تراودك وأطيح بها.. وكنت أنتهي بالاعتراف بأنني أغار عليك.. من كل إناث المخلوقات والأشياء..صحيح حبيبي.. تذكر يوم ضربت القطة لأنها تجرأت وتمسحت بك؟ لم أوجعها، فقط أبعدتها عنك.المهم عمري.. سترسمني؟ أريدك أن تجعلني قمرا.. فراشة.. حبة لوز.. قطعة بسبوسة وكل الأشياء التي تحبها و تشتهيها..أريدك أن تجعلني امرأة جميلة.. وفي الواقع أنا أحس أنني جميلة لأني استحققت أن تحبني أنت.. فتاي الوسيم وفارسي القادم من الزمن الجميل.. يعجبك أن أقول عنك فتاي الوسيم؟ أنت فعلا كذلك..

الخميس..

من أجمل الأشياء في حبنا أننا أنا وأنت قادران على الارتداد نحو الماضي والغوص فيه كما لو كان حقيقيا.

تذكر عمري يوم عدت فيه ثلاثا وعشرين سنة إلى الـــوراء في خط الزمن يوم تعارفنا؟ يوم تخلصت من عقدي كامرأة تكافح في الحياة وتناضل من أجل إثبات الذات.. وتضع ألف حـــاجز دون الآخرين حتى لا يَطالوها.. يوم عدت طفلة صغيرة تتهادى في بهجة و اطمئنان نحو عقدها الثاني.. يوم لبست ثوبا في بياض الثلج وحنانا في روعة الأم و الق الحبيبة، وحملت لك أزهـــارا وسرب نوارس من الأمنيات ويدين صغيرتين قـــادرتين علـــى المسح على كدمات الروح فتزول زرقتها.. وعلى بكاء القلب فيسكت أنينه.. يوم زرتك في المستشفى أنت الفتى الناجي من الموت بمعجزة والمبتلى بفقد أقرب أصدقائك لروحك.. يـــوم هدأت من روعك و لم أتركك حتى أخذت وعدا منك بعـــدم البكـــاء لأن ذلـــك يحـــرق روحـــي جزعـــا عليـــك.. حبي أنت لا تريد أن تحرق روحي عليك صح؟ افتح عينيـــك، إذن..استيقظ.

الجمعة..

إنه يومنا الأخضر.. ستتوضأ عمري.. ثم نجلس سويا لنقرأ سورة الكهـــف.. اليـــوم ســـأقرأ أنـــا وستـــستمع أنـــت..

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

....

ـ عمري!

ـ ألو بابا، أحمد استجاب.. دمعت عيناه!!!

سنرحل

كان واقفا أمام مرسمه ، لم يستدر حينما فتح الباب.. لكنها تعلم أنه قد سمع وتعلم أنه مجروح.. تقف وراءه.. تضع ذراعيها حول عنقه.. وكما قطة تتملق صاحبها تحك رأسها على كتفيه إلى أن تضع وجهها على خده.هذه الاستراتيجية لم تفشل معه قط و لكنها تخذلها الآن.. هي تتوقع الأسوأ.

ـ ما كل أعشاب الكآبة هذه التي تنبت على وجهك؟ همس بذلك وهي تمرغ خدها على وجهه.أبعد وجهه عنها ثم تخلص من سجن ذراعيها.. استدار نحوها.. لكنه يهرب من حصار نظراتها إلى تأمل قدميه. فجأة تقرر الذهاب إلى الجهة المقابلة من الغرفة.. تقف هناك عند النافذة.. تضع ذقنها بين يديها.

الشمس اختفت خلف الأشجار.. الليل القادم رمى بياضا كلسيا على البحر والأغصان فقدت رونق ألوانها.

- ماذا هناك بابا؟

ضحك ولأنها لم تسمعه يضحك بهذه الطريقة فكرت.. القضية عميقة إذن.. لكن ما الأمر؟ من غير أن تتوقع.. يقطع

المسافة بينهما.. يمسك بكلتي يديها بين يديه.. ينظر إليهـــا في توسل.. وفي عينيه المرتبكتين تشهد انقضاء تلك اللحظة الوهمية التي تفرق بين الليل والنهار.. حينما يمتـــزج عطـــر البنفـــسج و الليلك مع أنسام البحر وحينما تتقاطع طرق أسراب الحمـــام العائدة إلى أعشاشها مع طريق طـــائر الليـــل الأســـود .. إن السنوات العشرين التي عاشاها معا في هذا البيت الريفي بعيـــدا عن زحمة البشر و تعقيدات الحياة المدنية..جعلتهما ينـــسجان نوعا فريدا من علاقة والد مع ابنته..انهما يتصرفان و كأنهمـــا صديقين تماما.. ربما يكون لوفاة الوالدة دخل في الأمر،فغيـــاب من يلعب دور الوسيط فرض علاقة مباشرة تلغي الكثير مـــن دور الغموض الذي يلعبه الوالد التقليدي.. من نظرة واحـــدة يمكنها أن تسبر أغواره فهو كتابها المفتوح..نظرتها هذه المسلطة عليه في عزم و تصميم لن تتركـــه وشـــأنه أبـــدا في حركـــة استسلام، أمسك يدها..اتخذ له مجلسا..ثم أجلسها قبالته.

-لقد وصلتني رسالة تهديد.

-كيف؟ ممن؟ لماذا؟

جاءت أسئلتها هكذا في فوضى وارتباك ..

- إنهم يريدون مني أن أوقفك عـــن الـــذهاب للجامعـــة و يريدونني أن أتوقف عن الرسم.

في لحظة استسلام تأخذه في حضنها وتضم حزنها لحزنـــه.. تحس بألم قاطع كالسيف.. كما لو كانت تلمـــس بجرحهـــا جرحه فيصير الألم لذلك مضاعفا آلاف المرات.سنرحل مـــن هنا.لكن كل حياتنا عشنا ها هنا، كل أمورنا ترتبت على هذا المكان.. ثم إلى أين نذهب ليس لدينا مكان آخر نلجأ إليه .

هذا المكان هو جنتك.. كل ذكرياتـــك..كـــل لحظـــات السعادة القصوى وأحايين الشقاء مرتبطـــة بـــركن مـــا مـــن البيت..بشجرة وارفة الظل عملاقة تنتصب في إباء و كبريـــاء بالغابة..بكل أشجار التين والزيتون والتوت البري، بقبر أمـــك الذي تغطيه نبتة 'الجيرانيوم ' الدائمة الاخضرار.. بالوادي ذي الماء البارد في عز الصيف و المغارة السرية التي كنت تقـــيمين فيها مع أبيك موسم 'التخييم المتوحش' والنار الـــتي كنـــت توقدينها تماما كما كانت تفعل جدتك الأولى ولحظات الفخر الكبرى حينما تقدمين لأبيك طبقا استثنائيا 'البطاطا المـــسلوقة على حطب الغابة'وبتلك البهجة التي تكتشفينها كل صـــباح عند استيقاظك على صوت الآذان يأتيك من القريـــة البعيـــدة والحياة العائدة مع خيوط الفجر يا الله كـــم كنـــت تحـــسين بلحظات الصفاء حينذاك.

تسترجع كل هذه الأشياء الجميلة وتتذكر ما كتبته الوالـــدة في دفتر مذكراتها عندما اضطرتها الظروف للعيش في هذا المكان

القصي"إن الإنسان هو روح المكان وعالمنا الحقيقي هو ذلـــك الذي نحمله في أعماقنا يلازمنا في حلنا و ترحالنا و ما لم تطـــل الظروف ذلك العالم فلا شيء يمكنه أن يهزمنـــا وإلا كيـــف استطاع أبونا آدم أن يعمر الأرض بعد خروجه من الجنة؟ تأخذ قرارها

– نعم بابا.. سنرحل.

فتافيت قلب

تضعين القلم بين أسنانك.. تعـضين عليـه وتنظـرين إلى المرآة..أنك نفس المرآة ،طويلة ،هزيلة قليلا ، نفـس العيـنين الكستنائيتين المشعتين ذكاء.. هاتين الشفتين اللتين لطالما قرأتـا قصائد الشعر ، هاتين اللتين لطالما تبادلت مع أفراد العائلة قبل الصباح ومشاكسات المائدة. وهذين الذراعين اللتين - دلالا - انفتحت كم من مرة لتحتضنا لك أروع الآباء وتـضمانه إلى صدرك ، قريبا من قلبك .

أجل هي نفسها تلك المرأة ، لكن لم يعد هناك ذلك الكـم الهائل من الصبر .

أصبحت غضوبة و لم تعودي تفهمين كيف يكون الإنسان قادرا على الحلم و الطيبة.. كيف يمكنه أن يشعر بـاليقين، أي يقين .

تسترجعين .

بكل عنفوان سنواتك الثلاثين تشعرين بالشيخوخة ، كـل صور الحياة أصبحت تلتقطينها بألوان الخريف ، أنه يكاد يخيل إليك أنك لم تعودي تعرفين الشمس .

- هل تحسين بي و لو قليلا؟ حرام ألا تحسي بي كما أحس بك .

أبدا. لم تكوني تعرفين – قبل اليوم – الآلام التي يحسها من يغلق بابه في وجه الآخر .

لكأنك تحسين الموت في قلبك ، لم تعودي قـادرة علـى الإتيان بالمشاعر .

تحسين بالخوف.. الليل يهبط على هذا البيـت الكـبير.. تنادين أمك.. تحسين بالفجيعة.. تضربين الجدران بقبضتك .. تحسين بالحقد عليها لأنها لم تحبك.. لم تسمعك .

لا تفهمين لم هي لا ترد .

بلى ،تفهمين وتقبلين لأن القوة تعوزك ، للرفض.. القـوة غادرتك منذ رأيت ذلك الصف الطويل من القبـور.. ثلاثـة عشر قبرا .

يعود كل شيء ،الصرخات ، كل الصرخات وبريق النصال الحادة في الظلام و صوت سقوط الأجـسام المغـدورة علـى الأرض، والوجوه ، رباه تلك الوجوه والدماء عليها والعيـون تحدق في اللاشيء، وتلك النظرات المستحدية .

يعود لك كل ما أردت الاحتفاظ به دفينا في أعماقك .

– هل تحسين بي ولو قليلا ، حرام أن لا تحـسي بي كمـا أحس بك ، تعود لك هذه العبارة كذلك وأيضا.كأنها شـرارة

نور ونار تأتي إليك من نجم بعيد إلى أرض يسكنها الظلام والصقيع .

تعود لك صورة أخيك الأكبر ، نفس الصورة التي رأيته عليها في منامك .

كنت تعانقينه باستماتة وتبكين على كتفه بحرقة مفجعة وتسألينه أين أنت وأين أبي وأمي وأخوتي وأخواتي البنات ؟ لقد قالوا لي أنكم متم – هل صحيح أنكم متم؟

– نحن لم نمت لقد كان سفرا صغيرا وها نحن نعود ، قال لك ذلك وهو يتسم محاولا التملص من سجن ذراعيك بكل لطف .

– هل تحسين بي ولو قليلا ، حرام ألا تحسي بي كما أحس بك .

أنت الآن أمام المرآة تنظرين.. تندهشين لعدم رؤية أخيك الأكبر داخل دائرة ذراعيك ، أنت تعانقين نفسك،تحسين بألم ما ،تتحسسين مكانه .

إنها البقعة التي استخرجوا منها السلك الصديء المتلولب .

لم يصدقوك حينما قلت لهم أن هناك رصاصات ما اخترقت جسدك ،لقد اعتقدوا أن هول الصدمة قد أفقدك صوابك

و أنك لم تعودي   تعين ما تقولينه أم تراهم قد أحسنوا الظـــن فيمن فتح بطنك بتلك الآلة البشعة ،بأنه لم يكن بإمكانـــه أن يرميك بالرصاص أيضا .

لم يكونوا معك ليلتها .

كما في لحظة استسلام ، تدعين جـــسدك يـــسقط علـــى الأرض.

– هل تحسين بي ولو قليلا ، حرام ألا تحسي بي كما أحس بك .

تحسين برودة البلاط تسري في جسدك.. يقشعر بدنك .

تتذكرين كيف زحفت تلك الليلة على ظهـــرك.. الـــدماء الهاربة من شرايينك ومحتويات أمعائك التي تدفقت على حواف الجرح كنت تنظرين إليها، وكأنها دموع لحظة شقاء تافهة ،أو كأنها رشح زكام .

– اسمعي، إن البنات و الأمهات ينقلن الحياة الواحدة مـــن الأخرى جيلا بعد جيل .

كانت تتكلم بصعوبة .. كانت تختار الكلمات عميقـــا في قلبها ، كانت ممدة على الأرض ، يدها اليمنى على قلبها حيث كانت تنزف الدماء ، ويدها اليسرى كانت تمسك يدك بقوة ،

لكأنها كانت تعطيك من نفسها كي تعيشي .. لم تكوني ترين وجهها .. وضعك لم يكن يسمح لك برفع رأسك ولو قليلا لتريها.

- لا أريد أن أكون مثل تلك الشجرة التي تتوقف فجأة عن الإيراق ، وأن كنت أنجبتكم أنت، و أخوتك فلكي أستمر من خلالكم بعد رحيلي و لا يكون موتي نهائيا .

ثم ،في لمح البصر ، انقطع الدفء الذي كانت يدها تمدك به ، وارتخت قبضة يدها .

مددت يدك إلى صدرها.. هذا الصدر الذي أفرز لك لبن الأم و أحبك ملء القلب.. ها أنت غير قادرة على أن تذرفي له و لو دمعة .

- هل تحسين بي ولو قليلا ، حرام أن لا تحسي بي كما أحس بك .

هل الطبائع الأرضية هي التي تحجبنا عن النفس في صورتها المثلى ؟ هل هي مصالح الأنا تقف أعراضا ساترة تحول بيننا وبين القلب كما هو ؟

حتى الحديد الصلب يخضع لقوة جذب المغناطيس.. ببصيرة عقلك ترين بكل وضوح آيات الاستحسان الروحاني الذي

أنت موضوع له،لكنك لا تستطيعين التخلص من هذه الطبقة الدرنة المتليفة حول قلبك تحول دونه ودون وصول إشعاعات الحياة إليه .

تعودين إلى الطاولة ، تأخذين القلم من جديد.. تفكرين قليلا ثم تصيغين طلب مهلة في محاولة تشييد جسور متينة تعودين من خلالها إلى الحياة .

دعوة للحب

في حياتنا خطان متوازيان للزمن.. الزمن الخارجي ، الأيـــام والشهور والسنون ، والزمن الداخلي ، الزمن النفسي.. ذلـــك الذي هو الزمن الحقيقي للإنسان ، في لحظات السعادة القصوى كما في الأحلام إلى ذلك الزمن نذهب.. هنالك أنت.. علـــى عتبة تفصل بين الوعي المدرك اللاوعي النهائي.. في أحـــايين كثيرة يعتبر مجرد دخول المعركة استـــسلاما.. وهزيمـــة أولى لا يعزي في ذلك حتى القناعة بان خسارة معركة لا تعـــني أبـــدا خسارة حرب. لأن الرابح في الحرب لن يكون إلا ذلك الذي ألحق القدر الأكبر من الجراح ولأنه سيكون ذلك الذي أحيـــا سنة ولد آدم قابيل وهابيل في الغابرين .هـــذه هـــي قناعتـــك الكبرى التي لم تتنازل عنها حتى حين ضربت في قلبك المحـــب وعقلك المفكر يوم ذبح الأب الرمز لقد قلت في تأبينيته.. والله لو ثقفنا من قتله لما قتلناه.. قلتها و لسان حالك يردد ما قالـــه الإمام الشهيد: قاتلوا الناس بالحب. تلك هي دعوتك .. فأنت داعية محبة.. لان الإسلام دين المحبة.

في أحايين كثيرة يعتبر مجرد الدخول في المعركة استـــسلاما وهزيمة أولى. رباه ! وهذه التراكمات التي تتأصل في المجتمـــع

سرطانا ؟ وهذه الكميات المهولة من الحقد التي تأخذ أبعـــادا خرافية مكونة آلة للدمار الذاتي للمجتمع، وتلك الهوة السحيقة التي تتسع مدى.. ماذا غير الحب يبني الجسور بين ضفتيها؟ هذا ما كنت تطرحه تـــساؤلات علـــى إخوتـــك في المكتـــب.. وواصلت النقاش حوارا داخليا حينما أوصلوك أمام باب دارك حين أحسست بثلاث شرارات آلم اخترقت جسمك رصاصا انطلق من مسدس تحمله يد أخيك في الـــوطن هكـــذا هـــي الطعنات البكر التي لا تأتي ألا من أيد حبيبة.

في فوضى أشياء نفسك التي دامت على الأقل سنة ضـــوئية تراءت أمام ناظريك صور كل الأحبة الذين أمطرهم رصـــاص الغدر فاعشوشبوا شهداء في الجنة.

رأيتهم كما عهدك بهم و البسمة كما خبـــزك اليـــومي لا يمكن إلا أن تنالها.. واليد التي لا يمكن أن تمتد دون تمسح بعضا من ذنوب اليوم والليلة.

رباه ! وهذا الوجع الحارق.. المدمر لمساحات واسعة مـــن القلب من سيقف في وجه زحفه الاحتلالي؟

في أحايين كثيرة يعتبر مجرد الدخول في المعركة استـــسلاما وهزيمة أولى.. وقلبك النابض حبا يستهدفه الرصاص.. لماذا؟

جسمك المسجى على سرير مستشفى قسنطينة الجامعي..لا حراك فيه.. نبضات قلبك تظهر على شاشة الكارديو غـــراف

خطا إنكساريا في رتابة ، ذراعك موصولة بأنبوب المـــصل.. عيناك في طمأنينة المؤمن مغمضتان.. مطبقتان في غيرة استثنائية على رؤى وآمال ستتحقق حتما كما هي كل وعود الله.

في حياتنا خطان متوازيان للزمن.. الزمن الخارجي.. الأيام والشهور والسنون، والزمن الداخلي ، الزمن النفسي.. ذلـــك الذي هو الزمن الحقيقي للإنسان.. ذلك الذي شـــهد بدايـــة البداية وسيشهد النهاية.. زمنك الخارجي انـــسحبت منـــه إلى حين، إخوتك وبعد الدهشة الأولى.. سرعان مـــا اســـتعادوا التوازن، إنا لله وإنا إليه راجعون.. ماذا غير هذه العبارة البلسم تعيد لهم سكينتهم المعهودة رغم كل الدفاتر التي ملئت أخبـــار نعي و محاولات اغتيال في حق دعاة المحبة.. الحركة في تكرارها تصبح ميكانيكية.. الفجيعة في تكرارها يعجز الحلق أن يفرز لها ما يجب من المرارة ، فلا تمر وتبقى هناك، غصة .

في أحايين كثيرة يعتبر مجرد دخول المعركـــة استـــسلاما.. وهزيمة أولى حين يرفع أحدهم صوته عليك.. فترفـــع أنـــت صوتك عليه من باب المعاملة بالمثل تكون أنت المنهزم لأنه هو الذي أملى عليك قواعد اللعبة فكيف إذا استهدف قلبك المليء محبة ، رصاصا وسكاكين صدئة ؟

في حياتنا خطان متوازيان للزمن.. الزمن الخارجي ، الأيـــام والشهور والسنون، والزمن الداخلي ، الزمن النفسي.. ذلـــك الذي هو الزمن الحقيقي للإنسان ، الآن تستيقظ في الغرفـــة..

تفتح عينيك.. حولك تجد أبناء سيدي مبروك جاءوا ليطمئنوا عليك.. ابتسامتك كبريق النجم استغرقت سنوات ضوئية ولكنها رغم ذلك وصلت رائعة دافئة.. وقبل أن تغمض عينيك مرة ثانية رأيت الرضا على وجوههم.. وكأنهم يقولون لك لم لا نقاتل بالحب كذلك وأيضا.

٢٢ سبتمبر ١٩٩٤

زلزال و مشاعر صغيرة

عُمْرِي!

فِي زَمَنِ العوْلَمَة هَذَا يُنَادُونَ الشّخْصَ المَحْبُوبَ ب "بـيبي" حـتَّ كَلِمَـاتُ الحُـبِّ عَوْلَمُوهَـا الكـي أَسْـتَعْمِلُ كَلِمَةً"إقْليمِيَة"مُسْتَعْمَلَةً بصفَة وَاسعَة جَزَائريًا.هَلْ تَذْكُرُ ذَلِـكَ اليَوْم الذي أَخبَرتُكَ فيه أنّنِي قَرَّرْتُ تَرْسِيمَ اللُّغَة العَرَبِيَـة لُغَـةَ التَّعَامُلِ الْأُولَى بَيْنَنَا؟ لَقَدْ تَسَلَّيْتُ كَثِيرًا بِمَنْظَرِكَ وَأَنْتَ مندهشٌ وَمأخوذٌ وَغير مصدق.. كَانَتْ تلك المرة الأولى الـتي تـراني أكمل جملة بهذه اللُّغَةِ.. قبلها كَانَتْ لُغَةُ الحديث بيننا الفرنسية اللُّغَةُ الأم بالنسبة إلي ، تلك التي تعلَّمتُهَا عن مَامَا ..

عُمْرِي!

مَاذَا تَعْرِفِ ـــ أَنْتَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ ـــ عَنِّي ؟ فِي صَمِيمِي أَعْنِي.. مَـاذَا تَعْرِف عَنْ أَلَمِي ، وَعَـنْ وَحْـشَتِي ، وَعَـنْ خَوْفِي.. وَعَنْ أَمَلِي.. وعَنْ يَأْسِي.. وعَنْ كُلِّ مَـا يُمْكِـنُ أَنْ أُحِسَّهُ الآن؟ فِي الوَقْت الَّذي قَدْ تَظُنُّ فِيه أَنَّنِي ـــ أَنَا بَطَلَتُكَ ـــ أتخندق مع فصيلة مِنَ التَّسْلِيمِ وَ الرِّضَا وَ الصَّبْرِ تماما كما حِين

كُنْتُ أُصِرُّ عَلَى وَضْعِ الإِيشَارْب على رأسي وَلـبس ثوب بأكمام طويلة في عز الصيف.. كلما حدَثَ هذا كَانَتْ مَامَا تفتعل أزمة الضَّغْط.. وَ كَانَ بَابَا يأتي ليعنفني.. وَ ينتهي الأمـر بأن يسحبني مِنْ شعري و يضربني على وجهي وعلى رأسـي على ظهري.. يفعل معي هذا وَ أنا سأكمل عـامي الـسابع وَالعشرين.. عِنْدَمَا كَانَ بَابَا يَضْرِبُنِي كُنْتُ أنكفئ على الداخل و أدعه يفرغ كل غضبه على جسدى.. و أبدًا لَمْ يَكُنْ يَطَالُنِي حين أهرب إِلَى حديقتي السرية.. وَ فِي أقرب فرصـة كُنْـتُ أهرع إِلَيْكَ وَ كُنْتَ تشجعني على الاستمرار في المقاوَمة وَكُنْتُ أسعد حينما تقول لي بأنك فخور بي..وَ الآن.. هل أَنْتَ تفخر بي الآن وَ أنا أجلس على البلاط في هذه الغرفة المتداعية أعانق ركبتي وَ أضع رأسي عليهما.. و أتمنى لو أَنَّهُ فقط بالإمكان أَنْ تكون هـُنا الآن وَ فورا..وَ أُحِسُّ بِبَعْضِ الحِقْد عَلَيْكَ لِأَنَّـكَ تظلُّ ــ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ ــ غَيْرَ مُسْتَجيب وَ إِحْسَاسُكَ بِي يَظَلُّ ضَعِيفًا وَغَيْرَ مُكْتَمِلٍ.. وَ تظلُّ غير عارف بما يحـدث لي.. فِي هَذَا النَّمَط الغَرِيب ــ الحَمِيم كَمَا لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَكْثَر ــ مِنْ عَلَاقَات الْأُنوثَة وَ الذُّكُورَة عِنْدَمَا نُعَلِّقُ كُلَّ شَيْءٍ ــ أَوْ الكَثِير جدًّا ــ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ الفَوَاصِلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَـهُ قَدْ سَقَطَتْ وَنتصور أنّه قريب إِلَيْنَا إلى درجـة يمكننـا معهـا التخفف مِنْ وحدتنا حتى لو لم يكن موجودا معنا بحساب المادة

وَ الجسد..فلماذا أنا ــ الآن ــ وَحْدي فِي مُوَاجَهَة حَقِيقَتـي العَمِيقَة.. وَضَعِيفةٌ وَ وَحِيدةٌ وَخَائفةٌ وَ جَبَانة؟ لماذا تعجز أَنْتَ عن إمدادي بأية قوة تعصمني مِنَ السقوط فـي الهـوة.. أنـا أتعرض لإعياء شديد،لا مفرٌّ لي مِنْ ذَلِكَ..أرضية الغرفة تهـدد بالسقوط عند أدنى حركة مِنّي.. أو مِنْ أحد سكان الطوابـق الأخرى..الأصوات تأتي مِنْ كل صوب.. مِنْ داخل العمـارة - التي كَانَتْ قبْلَ سَاعَات عِمَارَةً - وَ مِنَ الخَارِج.. أصـوات تأتيني كلها.. مِنْ بعيد وَ كَأَنني موجودة فـي بئـر عميقـة.. الظاهر أنني فعلا تحت الأرض..أم هو انطباق الطوابـق علـى بعضها.. هو الذي يعطيني ذلك الإحساس الرهيب بأنني فـي القبر.. هل تتخيل؟ أنا التي تخاف المسارب الأرضية وَ المصاعد وَ كل الأماكن المغلقة.. أجد نفسي محشوة داخل عمارة مِـنْ خمسة عشر طابقا.

عُمْرِي!

بَدَأَ الشَكُّ يُسَاوِرُنِي فِـي أَشْـيَاءَ كَثِيـرة.. وَ بَـدأَت التَّسَاؤُلَاتُ تَفْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيَّ.. تصر فِي إلحَاح على الارتسام على مساحات الوعي المتبقية مِنْ كياني المتهالك.. هل حـان الآن وَقت الرحيل؟ هل ستذهبين الآن؟ وَ مـاذا سـتأخذين

معك؟ وَ ماذا سوف تقولين؟ أليست هناك وَ لو فرصة صغيرة للمحاوَلة من جديد؟

وَ مَامَا هل ستحاسب مِنْ أجلي؟

أتدري.. أظنني لن أحب فكرة ذلك رغم أنها كَانَتْ مأساتي منذ البداية.. حتى قبل قراري الالتزام.. أم تراني أنا التي كنت مأساها.. أظنها كَانَتْ تحقد علي لأنني لم أكن - مثلها - امرأة فاتنة تستدير عند مرورها كل الرؤوس.. ربما كَانَتْ تخجل بي.. وَ مع ذلك أنا حاوَلت.. لقد أنفقت سنين ثمينة مِنْ عمري.. وَأنا مهووسة بهذا الجسد الذي كَانَ يرفض أن يكون طيعا.. وَ زادني ذلك إصرارا وَأذقته كل أنواع العذاب.. التمارين الرياضية القاسية.. الحرمان مِنْ الطعام.. وَ الاقتصار على كوكتيل البيض النيئ فِي الصباح وَ السلطة الخضراء فِي المساء.. وَحلقات الإقياء التي كَادتْ أن تقتلني.. لقد عانيت دُونَ أنْ تدعمني.. دُونَ أنْ تشفق علي يوم.. و بعد هذا الثمن الباهظ جاءت النتيجة.. تحولت حبة اليقطين إلى أميرة جميلة.. وقتها فقط أصبحت مَامَا تنظر إلي.. لأنني أصبحت محور حديث صديقاتها التافهات.. ولكن هذا لم يدم طويلا.. وكَانَ مسَاء.. ذَلكَ المسَاء الَّذي حدثتني - وَ فِي صَوْتِكَ شَجَنٌ سَاحِرٌ حَزين - عَنْ عَزْمكَ عَلَى الالتزَامِ وَ عَنْ قَرَارِكَ بِتَجْميدِ خطْبَتنَا المُدَّةَ الكَافِيَةَ لِي لأخْذِ فُرْصَةٍ للتَّفْكير.. تفعل بي هذا.. بعد أن

أصبحت جميلة .. بعد أن أصبح جسدي طيعا يتلبس جميع الأثواب.. ويتشرب جميع المواد الفاخرة.. انتابتني - ساعتها - حَالَةُ اضْطِرَابِ مَجْنُونةٌ.. كُلُّ ذَلكَ كَانَ جَديدًا عَليَّ.. بلْ كَانَ يُخيَّلُ إليَّ أنَّني كُنْتُ أعْرِفُ كُلَّ شَيءٍ عَنِ الالتزام مما كَانَتْ تَقُولُهُ مَامَا.. الأفْكَارُ المتحجرة.. وَ مُصَادَرَةُ الحُرِّيَةِ وَ الإرَادَة .. المَرْأَةُ بَيْنَ الجُدْرَانِ وَ البَابُ مُقْفَلٌ.. وَ لَبْسِ أكْيَاسِ الزَّبَالَة السَّوْدَاء. وَ حَضْرِ السِّينمَا وَ المَسْرَحِ وَالمَسْبَحِ وَ البَحْرِ وَ السَّفَرِ.. في تلك اللحظة.. باغتتني نوبة وعي استثنائية .. لقد ألقيت على نفسي القبض وَ هي متلبسة بجرم حساب تبعات الغدر بك..وَ كَانَتْ نفسها اللحظة التي اخترتها أنْتَ..وَ كما بكَبسة زِرٍّ.. جملة وَاحدَة.. قوّضْتَ كُلَّ دفَاعَاتي.. قلتَ ليأنَّ هذه الدنيا مَهْمَا طَالَتْ لَنْ تَكْفِينَا لنَعيشَ مَعًا ملْءَ القَلْب.. ملْءَ الرُّوحِ .. ملْءَ العُمْرِ.. وَ أنها لا ينبغي أن تكون أكثر منْ محطة نحضر فيها أنفسنا للخلود معا.. أحْسَسْتُ مَعَك بأمَان أنَاني - أمَانٌ لا يَنْبَغِي أنْ يَنَالَهُ أحَدٌ نَظَريًا ذلك الأمان لم يزعزعه قليلا سوى صوت مَامَا المنفجر في وجهي:"تريدين مواصلة الارتباط به حتى بعد أن أصبح أصوليا.. لقد سحرك.. وَلكنني سأعرف شغلي معه.. سأعيده لأمه مسجى في صندوق..الإرهابي".كُنْتُ أنْظُرُ إلَيْهَا وَ جَعَلْتُ انْسَحبُ إلَى الوَرَاءِ حتَّى تعرَّفَتْ خَطوَاتي عَلَى بَابِ غُرْفَتِي.. دَخَلْتُهَا

وَ أغلَقتُ البَابَ وَرَائي.. لَكِنَّ صَوتَهَا ظَلَّ يُلاحقُني وَ يَقْـتَحِمُ عَليَّ خَلْوَتي.. حتىَّ سمعت حَرَكَةً غَيْرَ عَاديَة تَيَقَّنْتُ أنَّهَا أزمـة الضَّغْط.. أو ما تفتعله وَ تسَمِّيه كَذَلكَ ..هذا فقط مِنْ أجل أنْ أنَالَ جَزَاءَ مُخَالَفَةَ إرَادَتهَا..

عُمْرِي!

الوقت يمر.. وَفُرَصِي فِي النَّجَاة تَقل.. أحس إعياء وَ عطشا وَ اختناقا.. وَ لكني أرغب فقط في قطعة قماش أضعها علـى رأسي.. أرَى خَيْطًا مِنْ ضياء يخترق العتمة نحوي هَـلْ هِـيَ النِّهَايَة؟.هَلْ هِيَ بِدَايَةٌ جَديدَة؟

الجزائر ٧٠-٠٦-٠٣

مفترق الطرق

المكابرة قد تؤدي إلى آماد بعيدة ولكنـــها لا تــؤدي إلى القرار الصحيح.

بقوة وبعزم وثبات تغامرين أبعـــد في الـــذكريات كمـــا بالخطوات.. كمواطن الطفولة نعود إليها بعيون الكبار.. بدت لك المساحات ضيقة لدرجة لا تصدق..فقط شجرة البلـــوط المنتصبة هناك.. لا زالت -كما بعض أشياء اليوم العادية- تعيد لك ذاكرة التواضع.. لكن بطريقة أخرى.

أول يوم أحسست فيه بالضآلة كان يوم قارنت نفسك بهذه الشجرة.. حينها كنت ما زلت طفلة تتعلم أبجدية الأشـــياء.. وكانت وقتها خضراء توحي بالخصوبة وتعد بالحياة.. كـــان أحمد معك يومها.. كنتما تجعلان -كعادتكما- من المنافـــسة في صعود الشجرة قضية حياة أو موت.. مع أحمد كان للحياة طعم ولون آخرين.

ككل الأشياء ولدتما صغيرين ثم كبرتما.. كبرتمـــا ولكـــن الأحباب ليسوا سوى قنابل موقوتة للحزن والفرح.. فهل مـــن الحكمة أن نصنع الأحباب، أن نزرعهم في الحنايا؟

هل من الحكمة والعدل أن نـــسكنهم قلوبنـــا المـــستهدفة رصاصا وسكاكين؟

تواصلين مشوارك مع الخطوات والذكريات، تبتعدين أكثر في الغابة. لا يمكن في أي حال من الأحوال اعتبار هذا المكان ملجأ يمكن الاعتصام به. لكنك لم "تأت" إلى هنا للهروب، بل للمواجهة مع الذات.

فهذا المكان يعكس مدى شساعة مساحة التفاؤل التي دمرت بداخلك. هذا المكان مرآة عاكسة، وعندما نرى تكشيرة في المرآة، يجب ألا نحسن الظن بأنفسنا، ونعتقد أن على شفاهنا ترتسم أحلى البسمات!

لأنك ابنة تاجر، تعرفت باكرا على "مبدئي" الربح والخسارة، تذكرين أنك عندما كنت ترين والدك يرد للزبائن نقودهم، كان ذلك يخيّب آمالك، كنت تتساءلين: كيف يربح وهو يرد لهم ما يأخذه منهم؟ ومع الوقت تعلمت أن ما يرده لهم هو ليس كل ما يعطونه، وإنما ذاك فائض حقه يرده إليهم.

ولأنك حفيدة فلاح، تعلمت أن الأشياء - كل الأشياء- تولد صغيرة ثم تكبر، نبتة الخس التي تطل الى الحياة بورقتين لا تكادان تريان، يلزمها كم من الأيام لكي تصبح زهرة شهية خضراء، وكذلك ثمرة التفاح وصغير الأرنب.

و هذا الحزن ما له يأخذ منك كل الأشياء، ويفرغ نفسك من كل ذرات الرغبة في الحياة.

وما له يأتي هكذا مرة واحدة ، عملاقا من يومه ، جبارا يخالف حتى سنن الكون في التدرج؟

بقدر ما تتعمقين في الغابة التي لم تعد سوى خيالات أشجار، وكأنها أشباح في وضح النهار، بقدر ما تحسين أنك تغوصين في نفسك أكثر.

أهم أسبابنا للحياة قد تكون هي نفسها أهم أسبابنا للموت. كم هي نسبية المفاهيم حين نخضعها لمشاعرنا الشخصية!

أحمد عاش لقضية جعلها حياته ، صدى كلماته يعود إليك في وضوح: "أن تكوني مسلمة؛ يعني أنك تحملين مشروعا بديلا وهذا يعني أنك "إسلاموية" هذا هو المنطق".

تذكرين بما علقت على عبارته تلك: "يقول علماء الفيزياء: إن العطالة في الأجسام هي ليست سكونها ، ولكن استمرارها على نفس الحال من الأفعال ، أنت إذا قذفت جسما في الفضاء خارج مجال الجاذبية بقوة معينة ، فإنه سيظل على ذلك الحال من الحركة إلى ما شاء الله من المسافات والأيام ما لم يعترض مساره شيء يغيره ومجتمعاتنا المسلمة تقليديا تعودت الدوران في فلك الجمود، وما لم تكن هناك قوة تصحح مسارها بقيت هكذا ما شاء الله من الأيام".

حينها ابتسم أحمد، بسمته النصر وقال : "نحن نتفق إذن!"

واحدة واحدة تفتحين أبواب الذاكرة ، تفتشين في أشـــياء ماضيك ، بكثير من الحنين تنفضين الغبار عنها وتنظـــرين ، لا شيء اختلفت فيه مع أحمد، ألعابكما المشتركة ، تواطؤكمـــا – مضرب الأمثال– ضد أفراد العائلـــة ، وخاصـــة أخيكمـــا الأكبر، أشياؤكما الثمينة هي نفـــسها ، الكتـــب، الأشـــرطة السمعية البصرية ، "السكر ابل " – لعبة الكلمات– لعبتكمـــا المفضلة التي كنتما تؤثثان بها ليالي الـــصيف ، لا، لم تكـــوني تختلفين مع أحمد في شيء،كنت تتفقين معه في أهم الأشـــياء، ولكن مفهومه الطارئ هذا للقوة، اختلفت فيه معه بشدة ودون ترك أي حيز للتراجع.

لقد اعتقدت دائما أن هذه القوة لا بد أن تكون داخليـــة ، إيجابية ، كتلك القوة التي تجعل من الشمس تحترق لتنير الكون، وتلك التي تجعل الأرض تختار مدارها ذاك حول الـــشمس ، لا أبعد ولا أقرب ، واهبة لنا بذلك صور الحياة الرائعة ، وتلـــك الطاقة التي تجعلنا قادرين على الحب ؛ فنصبح بذلك عظمـــاء، وقوة الانفجار الأخضر في بذرة تكاد تكون ميكروســـكوبية ، انفجار يعطينا الغذاء.

المكابرة قد تؤدي إلى آماد بعيدة ولكنها لا تؤدي إلى القرار الصحيح.

يعود لك صدى صوت الإمام وهـــو يعـــظ المـــصلين: "لا تنتصروا لأنفسكم.. إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء".

طريقك الذي اخترقت عبره عمق الغابة أدى بك إلى ربـــوة صغيرة تشرف على الوادي.

فجأة تحتل الغيوم مساحة السماء ، ثم حزمة برق تنير دائرة حولك ، وكأنها تحدد مكانك ، ثم ينفجر الرعـــد في حميميـــة أعماقك.

تبحثين عن حضن أحمد للاحتماء به، وعندما تسقط أسلاك المطر عليك تدركين أنك وحدك واقفة تحت شـــجرة العنـــاب الشائكة، تحسين البرد والضعف والخوف ، تعانقين نفـــسك، وتجلسين هناك عند أسفل القبر، تبكين أحمد مرتين: مـــرة لمـــا حدث، ومرة لأحمد العمر.

الحريق المضاد

- خيراتنا تحترق ، حقولنا تأكلها النيران.

ما كاد سي أحمد البليدي ينهي نداء النجدة حتى كانت كل العائلة في الخارج.

في نفس الوقت تقريبا كان العمال قد بدؤوا يتجمهـــرون ، قادمين من كل أنحاء المزرعة ، يسودهم جو من الاضـــطراب ، لم يكن الواحد منهم يعلم ماذا يفعل ، كانوا ينتظرون أن يتولى أحد منهم مهمة إعطاء الأوامر، فأخذوا يـــسرحون بنظـــرهم سعيا بين النيران وبين الأب ولدهشتهم وجدوه حائرا ضـــائعا مثلهم تماما.

قالت زوجته بصوت متقطع النفس :

- الحقول.. ماذا سنفعل؟

نظر إليهم نظرة يأس ،فهو يعلم حقيقة قوة اللهب في مثـــل هذا الوقت ومثل هذه البقعة من الأرض ، فلقد رأى حقـــولا بكاملها أتت عليها النيران إلى آخرها.

- من الأحسن أن ننقذ ما يمكن من البيت النيران قادمة هذا الصوب قال الأخ الأصغر:

- لا.

قال سي أحمد البليدي وهو يصوب نحو والده نظرة فيهـــا عزيمة من حديد.

– ماذا يمكننا أن نفعل؟

قال الأب :

– يمكننا أن نقاوم عوض أن نتفرج أوهرب.

– تقاوم ماذا؟

وأشار الأخ الأصغر إلى بحر النيران الهائج القادم نحوهم.

– كما تقاوم الجفاف بالماء والجليد بالنار وكما تقـــاوم أي عارض من عوارض الطبيعة ، فإذا كان إنسان ما قـــادر علـــى إعمار هذه الأرض فهو ذلك الذي يتعلم كيف يسيطر علـــى ظواهرها وليس أبدا ذلك الذي يبقى تحت رحمتها.

استوى سي احمد البليدي في وقفته و قد غادرتـــه مـــسحة الهزيمة ، نظر إلى أكبر أخوته ، ثم إلى أصغرهم :

– سنحتاج إلى ماء و دلاء وكل شيء نقاوم به النار.

– سأتكفل مع النساء بإحضار الأغطية و الخرق والمناشف فسنحتاجها.

قالت زوجة سي احمد البليدي.

شرع في إصدار الأوامر.

– هذه المجموعة تحضر دلاء الماء.. تلك تهتم بتبليل الخـــرق والأخرى تتكفل بإخماد بقع النيران الصغيرة.

مع سي احمد البليدي ، في القيادة ، رفع الرجال التحـــدي أصبح شكل المقاومة يتحدد .

عمال المزارع المجاورة بدؤوا يفدون للنجدة والمساعدة .

هرعت النساء لجمع كل ما يمكنه المساعدة مـــن الأدوات.. المكانس والمناشف والأغطية وحتى ستائر النوافذ

الكل كان هناك ، سي احمد البليدي ، الإخـــوة الأولاد ، العمال،الأصدقاء والجيران. الجميع كان يحاول وقف زحـــف السنة النار التي كانت تحصد كل شيء أمامها

عمد الرجال إلى تنظيف الأرض من كل ما يمكن أن تعلـــق به النيران في محاولة للحد من زحف النار.

شدة الرياح خفت ولكن النيران قد بدأت تصنع رياحهـــا بنفسها.

الهواء الجاف طبيعيا ، زادت الحرارة من جفافه إلى درجـــة جعلته يمتص الرطوبة والاخضرار من أي شيء حـــتى قبـــل أن يمسه.

والآن مساحات هائلة أصبحت مزروعاتها حطاما.

الأوراق تذبل قبل ارتداد الطرف والثمار تنفجر قشرتها بعد أن يغلي العصير بداخلها.

سي أحمد البليدي كان أكثر الجميع حركة،يقف إلى جانب هذا شاكرا و مثمنا لجهوده و يستصرخ هذا داعيا إياه لسد ثغرة ما.

- لم يعد بإمكاننا المقاومة أكثر يجب تغيير طريقة العمل و أقترح أن نشعل نارا مضادة فلا يمكن أن يواجه النار إلا نار أخرى.

- "العواقب غير مضمونة" قال سي احمد البليدي معارضا أخاه الأصغر وهو يبحث بعينيه عن إخوته الآخرين ليساندوا رأيه و واصل." أفضل أن نستمر في إطفاء النار بالماء و التراب"

بدا و كأن في الأمر تواطؤا ما.. فما كاد الرجال يوقدون نارا صغيرة لكي تذهب لملاقاة الحريق قاطعة أمامه الطريق و واضعة مساحة جرداء تكون درع وقاية لبقية الأراضي.. ما كادت النار تشتعل حتى تعانقت ألسنة اللهب مكونة قبة من نار تظل رجالا يضعون أقدامهم على أرض أصبحت فيها حياتهم مهددة بجميع الأخطار.

تفقد سي احمد البليدي زوجته و الأولاد فلم يجدهم تأكد له أنها كانت قريبة من موقع الحريق في مهمة ما فداهمها الحريق المضاد و هي الآن في مكان ما بين النارين.

هي هكذا ، دائما مستعدة ، في غير تهور ، أن تسلك طريق التضحية وإن كلفتها حياتها ولكنه غير مستعد أبدا لفقدها ، فهي من أعطت لحياته مبنى و معنى.

تلك المصرية القادمة من الإسماعيلية كما يحلو له أن يسميها كان لقاؤها و ارتباطه بها أحسن ما يسرته له أقدار الله. لقـــد كانت نعم الرفيق في الدرب ونعم الأنيس في سنوات الوحـــشة ونعم الأم لأولاد صاروا الآن زينة شباب العائلة .

هكذا هي بعض النساء يكدن يتخلـــصن مـــن طبيعتـــهن الأرضية لكي يصبحن ما يشبه الرمز .

لا ، لا يمكنه ، و لو افتراضيا، التفكير في فقدها. فلن تكفيه الدنيا عزاء فيها.

لقد كان الدخان خانقا عند الاقتراب و الحرارة عالية

سيل من الحيوانات الصغيرة كانت هاربـــة مـــن الجحـــيم مذعورة إلى درجة أنستها خوف أعدائها الطبيعيين.

كان هذا آخر ما رآه سي احمد البليـــدي ، فبمجـــرد أن اخترق خط النار حتى وجد نفسه يتخبط في بحر من الظلمات طغت على المكان.

لكنه لم يكن ليهتم ففي حميمية قلبه كان يبصر نورا مـــشعا ولّد لديه يقينا بأنه لا يمكن إلا أن يجد زوجته سالمة معافاة.



أبجدية الشجن

ألف مثل : أمومة

فقدت أمي و أنا في سن صغيرة جدا.. لم أكن بعد قد تعلمت الكثير عن مفردات الحياة.. وليس هناك مثل الأم تعلم ابنتها أبجدية الحياة.. وهذه كانت بداية مأساتي.

ربما أنا مخطئة.. ربما ما كانت أمي لتستطيع من أجلي شيئا.. مثلما حدث مع نساء كثيرات غيري لم تغنهن حكمة الأمهات عن شيء.. ومثلما حدث مع ماري أنطوانيت.. ربما كان رأي أمي من رأي الإمبراطورة ماري تيريز.. بنات العائلات مثل الأميرات عليهن الانكفاء على جراحهن في صمت.

باء مثل : بنوة

حينما انظر إلى ولدي أرى الوجه الثاني من عملة الأمومة.. الوجه الذي أنا الفاعلة فيه.. وتلك مأساة أخرى.. لأني استشعر - أكثر من عموم الأمهات ربما- مسؤوليتي عن عدم تعريض ابني لنفس العراء الذي تعرضت له.

تاء مثل : تفاؤل

طويلا نظرت إلى نصف الزجاجة الفارغ وان أحول نظري بين ليلة وضحاها إلى الجزء الملآن كان من الصعوبة الكبرى بالنسبة إلي .. فبدأت أتعلم من قريب الالتفاف دائما نحو طريق ثالث بدأت افترض مثلا أن مدى الزجاجة أكبر من المحتوى. أصبحت أحاول أن آخذ بنصيحة المستشارة النفسية وأمارس تمرين التخلص من كل شخص قبضت عليه متلبسا بفعل مخل بتفاؤلي.. ليلة أمس طردت من حصيلة ذكرياتي اليومية جارتي التي تشتري دوريا أوراق اليانصيب ولا تتخلى أبدا عن أملها في الربح يوما ما ولكنها نظرت إلي بسخرية حينما رأتني اغرس شجرة أسفل شرفة بيتي..

ثاء مثل : ثرثرة

بالنظر للموضوع من زاوية أخرى.. أتأكد أن الناس من حولنا ليسوا على كل تلك الدرجة من التفرغ لكي يجعلونا موضوعات لثرثراتهم لمدد طويلة.. هم سرعان ما تستغرقهم تفاصيل أحداث أخرى وأبطال آخرين.. حدث معي ذلك في بداية زواجي.. حينما تسربت تفاصيل عن مشاكلي الحميمة.. كنت موضوعا طازجا تناوله الناس بالتحليل ومحاولة إيجاد حلول ناجعة لكن سرعان ما صار موضوعي "بائتا" و لم يعد يستقطب اهتمام أحد ..

جيم مثل : جمال

تقول إحدى صديقاتي الظريفات عندما وزع الجمال على الناس كان هناك وأخذنا حظنا منه ولكن يبدو أننا اغتررنا به فألهانا عن استلام حظنا من السعادة.. استمع إليها فاضحك مع بعض المرارة.. ولكن حينما اختلي بانعكاس صورتي في المرآة أبكي فعلا

حاء مثل : حديث

في الاجتماعات العائلية أميل دائما للاحتماء بدوائر العازبات.. هذه الدوائر تحميني من حرأة سؤال فضولي غير متوقع يصوب نحوي.. أو حرج الاستماع المرة بعد الأخرى إلى أحاديث المتزوجات عن الحياة الحميمة وحبوب منع الحمل.

خاء مثل : خيال

عجيب حقا أنني منذ طفولتي أعيش في فضاء بهذا الانفتاح.. خضرة مدى البصر.. لا بنايات عملاقة تحجب شمس النهار ولا عمارات تفرق بين العين وصفحة السماء.. عجيب أن يكون أفقي بهذه المحدودية.. اكتشف ذاك الآن.. أنا افتقر للخيال..

إذا أغمضت عيني لست قادرة على تخيل أكثر من طريقـــي إلى المطبخ.. مع أن المستشارة النفسية تقول أن الخيال على نفـــس الأهمية من الذاكرة.. فإنسان بدون ذاكرة أو بدون خيال هـــو على نفس الدرجة من التيه والضياع والإعاقة.. في ذاكرتنا كل مهارات الماضـــي.. وفي المخيلـــة خـــرائط اســـتعمال تلـــك المهارات..فيها تكمن الفرصة الحقيقية للتميز وللاخـــتلاف.. حتى لا يكون المستقبل نسخة مكررة بالكاربون من الماضـــي.. تمنعنا من السقوط في النمطية و تعصمنا من الانخراط في القطيع

دال مثل : دوامة

أسبابنا للحياة هي نفسها أسباب الموت.. أدركت ذلك في لحظة وعي مباغتة انتابتني وأنا أتأمل في انعكاس صورتي علـــى المرآة و فقاعات تفكيري تغافل عسس الوعي في وتطير متسللة ماضية إليه.. كان كصفحة ماء رائقة في موسم حـــر.. وأنـــا العطشى.. وجدتني متورطة في المضي مـــسافة مـــن المغـــامرة صوبه.. وبين خياري المضي و العودة كانت الفقاعات تدوخني وراءها.

ذال مثل : ذروة

ذلك اليوم وصلت إلى القاع تماما.. كنت عند أدنى درجات التماسك التي عرفتها في حياتي.. استيقظت في ذلك الصباح لأجد ورود حمراء على نافذتي.. ارتجف قلبي.. أحسست كأن سكينا حادة طعنتني وانتشيت.. هربت من البيت.. كانت أول مرة أخرج من دون إذن زوجي.. استلمني الشارع وانتابتني الحيرة طويلا قبل أن يقودني إلهامي قسرا إلى بيت مرشدة مسجد الحي.. رحبت بي بابتسامة وأدخلتني.. ودون أن تسألني بدأت أبوح لها بكل مكنونات قلبي .. لم تقاطعني.. لم تعبر عن صدمة أو تعاطف.. فقط استمعت إلي.. لما انتهيت طمأنتني بأنها ستكون معي.. اقترحت أن نزور صديقتها المعالجة النفسية في الغد.. قبل أن انصرف أهدتني كتاب لدايل كارنيجي.

راء مثل:رتابة

مشت الأيام بي تأخذ بعضها بيد بعض.. لا جديد يطرأ.. لا مدهش يحدث وجاء اليوم الذي فيه اكتشفت أنني تورطت والتزمت طريقا مؤداه نهايتين.. لم يعد أمامي من سبيل ثالث من غير أن أمعن في كرهي لنفسي و لكل البشر أو أن أنحل خلقيا.. وكلا السبيلين كانا يبعداني عني.. أنا الحقيقية.

زاي مثل : زواج

المجتمع يهتم بكل المظاهر الخارجية للزواج.. فالكل يـــراني زوجة مكتملة.. املك بيتا وزوجا وولدا.. لكن هل احد يهتم بجوهر الموضوع.. هل أنا زوجة مكتملة فعلا؟

سين مثل : سجن

هل يتعود السجين على سجنه؟ هل يحبه يوما؟ أنا فعلـــت ذلك.. كم مر علي من السنوات وأنا احبس عمري نفـــسيا في نظرة حزينة تطل في مسكنة على الآخرين؟ كانت سنوات سيئة تلك التي مررت بي منذ زواجي..

شين مثل : شباب

يعيش الناس عادة يبدؤون شبابهم.. بأزمة المراهقة و يختمونه بأزمة منتصف العمر.. ولكن بين ذلك يعيشون حالة جميلة من الحياة.. أنا أعي الآن أنني لم أخرج من أزمة المراهقة إلا علـــى إرهاصات منتصف العمر

اندهشت حينما أدركت أن سنيني اقتربت بي بـــشدة مـــن ذروة منتصف العمر.. دهشة جعلتني استنفر شظايا وحـــدات

قوتي الكامنة في حمول علي أستطيع استعادة دفة القيادة و الوصول الي بر أكثر خضرة .. وأفق أكثر اتساعاً.

صاد مثل : صداقة

لدي صديقات كثيرات.. جمعتهن خلال عبوري سبل سنواتي الخوالي.. بعض الجارات.. بعض زميلات الدراسة.. وبعض ممن تربطني بهن روابط عائلية.. ليس هناك موقف في حياتي الماضية إلا ويحيل على واحدة منهن.. صورهن تملأ ألبوماتي.. لكن حين أفكر فيهن بوعيي الجديد.. ابحث عن من منهن تصلح أن تكون عمودا أقوم به أحد أركان حياتي.. أجد أن لا واحدة هي كفؤ لتلك المهمة.

ضاد مثل : ضآلة

لطالما أحسست بالضآلة كلما اكتشفتني أغافل نفسي وأفكر فيه.. فما البث إلا أن أحرك يدي الاثنتين أمام وجهي كما يفعل الإنسان وهو يهش ذبابة قذرة عنيدة.. محاولة نفيه عن خاطري.. وكان يذهب فعلا.. لكنه ما كان ينسحب إلا ليعود.

طاء مثل : طلاق

من قبل .. كان الطلاق بالنسبة لي احتمالا محضورا.. حتى بيني و بين نفسي لم أجرؤ على طرحه بصراحة ووضوح.. الآن و قد ألغيت كل المرجعيات التي سادت حياتي السابقة.. أصبح هذا الاحتمال مطروقا.. لكن ليس كحل سحري يأتي فجـــأة فيجيء معه الخلاص.. ولا قرارا انفراديا اســـقط دونـــه كـــل الحسابات خاصة حساب ابني ..

ظاء مثل : ظلم

هناك ظلم واقع في حكايتي.. لكن هل هناك ظالم و مظلوم؟ مرت علي أيام و شهور وسنوات.. تمنيت أن يبادر هو ويطلق سراحي.. نعم كان عليه أن يفعل ذلك بما انه كان يعلم أنـــني الطرف الضعيف في الحكاية .. وإنني غير قادرة على المبـــادرة بطلب التسريح.. لكن بالتفكير الموضوعي أصل إلى نتيجـــة أن هذا الظلم يقع على زوجي ويسلط عليه نفس درجة القهـــر..

عين مثل : عذرية

كانت رهيبة تلك النظرة التي صوبتها إلي طبيبة النساء عند أول زياراتي لها بعد تأكد حملي.. فور التقاطي لحيثيات الاتهام

في عينيها أشهرت دفتري العائلي في وجهها وسرعان ما اعتدلت نظرتها على كرسي الاستفهام المتعاطف.

غين مثل : غواية

عيناه وقحتان ..لا تنكسران.. لا تخجلان.. ولا تهربان حين تكتشف ألاعيبهما ويحيط بهما الآخرون.. نظراتهما جعلت ناقوس الخطر يدق في مراقد وعيي جعلتني أتستنفر صفوف الدفاع الأمامية و ادعوها للتراص.. ومع ذلك.. أيقظت عيناه الربيع في قلبي.. تزلزلت ارضي العطشى للرواء. سكن القلب شجن عميق.. شعرت بالعري الفاضح.. فرحت أهيل على نفسي من هذا الحزن علي أتغطى به من الإحساس بالذنب ..

فاء مثل : فقد

كل ما فقدته في الماضي ظللت طويلا احمله عبئا ثقيلا.. يشغل حيزا في خارطة وعيي.. وحينما أقول يشغل فليس سوى مجازا.. لأنه في الواقع ليست حياتي سوى رقعة مليئة بالثقوب.. أشخاص تركتهم أو تركوني.. قسرا أو طواعية.. أحلام غادرتها.. نسيتها في محطة من محطات حياتي.. قرارات حرمان فرضتها معطيات واقعي.. تعلمني المعالجة النفسية لعبة الفقد

والبدائل.. علي أن اعترف أن هذه اللعبة الطارئة المستجدة في حياتي تستهويني كثيرا.. تطبيقها يكمن ببساطة في قدرة على تثبيت البديل الحقيقي مهما ضؤل حين تتم إزاحة شبح المفقود من مساحة انشغالنا.. حينها تفقد المقارنة مرجعيتها.. بدلت أشتغل كثيرا على هذا المعنى محاولة رتق ما اقدر عليه من ثقوب رقعة حياتي.. خاصة في حياتي الحميمة.

قاف مثل : قلق

ذلك الصباح كان للفرح.. البيت كان ما يزال يرتدي حلة العرس.. ورود وزينة ملء العين.. وزغاريد القادمات من الأهل كانت ملء السمع. لكن أنا كنت خارج ذلك الزمن.. مستثناة منه.. كنت بعيدة تماما.. تختلي بي سرب نورسات متوحشات.. يتخطفني.. ينقرن أعصابي دون رحمة.. الذي حدث لم يكن دراماتيكيا.. كان يقترب من العادي.. يحدث لأزواج كثيرين.. لكن لسبب ما كنت متوحسة.. قلقة.

كاف مثل : كتابة

طلبت مني المعالجة النفسية أن اكتب عن حالتي.. عن مناطق وجعي الحالية وعن شاطئ الأمان الــذي أفكــر في الرســو عليه.لطالما خفت من الكلمات.. فهي كثيرا ما تكون كعميــل مزدوج.. تمارس الخيانة في أمان وفي راحة ضمير.. تؤدي خدمة هنا وخدمة هناك وفي النهاية تحتفظ بالكثير مما يعرف ولا يقال لذلك لن أتنمق في تعابيري.. لن أمنحها فرصة الذهاب بعيدا.

لام مثل : لباس

أذكر بابتسام إحدى سيدات العائلة وقولها لي يوم خطــبني زوجي.. قالت لي : إن أباك وإخوتك مثل تلك الستارة الجميلة هناك.. هل ترينها؟ هي جميلة.. وتستر حركاتك داخل البيت تحجبك عن أعين الفضول.. لكنها لا تدفئ.. ما لا تعرفه تلك السيدة أن زوجي أيضا تحول إلى ستارة تزين وتستر ولكن دون شرارة دفء...

ميم مثل : ماضي

لا آفة للحظــة إلا أن نكبلــها ببلــوى مــا مــضى... نجتهد في تأسيس ماض ما ، فإذا ما حصل نتقوقع فيه ولا نعود

نغادره أبدا وكل ما أوغل بنا العمر في التقدم تطرفنا في الانحياز لهذا الماضي.. لا نعود نرى من شيء جميل إلا ما يذكرنا بعبق ذاك المجد الغابر.. كنت ابتسم في حنو لا يخلو من سخرية كلما بدأت جدتي حديثها.. ب.. في زماننا كان كذا وكـــذا.. الآن اكتشف أننا كلنا نفكر مثل جدتي.. وهم نادرون من يعتقدون فعلا أن غدا هو دائما الأفضل

نون مثل : نور

تقول لي المعالجة النفسية أنني قطعت مسافة من المشوار.. أحس أن طريقي عبر النفق لم يعد طويلا كثيرا.. المـسح بعـــض النور.. تعاقدت على المصالحة مع نفـــسي.. مـــع معطيـــات حياتي.. عزمت على أن القادم مهما كان سيكون نابعـــا مـــن داخلي.. مشفوعا بقناعتي.. مدعوما بقراري أنـــني وحـــدي سأكون سيدة مصيري.. حصلت على بعض السلام.

هاء مثل : هدية

يتلقى الناس هدايا مختلفة وفي مناسبات تتكرر أو تتميـــز.. وأنا لا أخرج عن هذه القاعدة.. لطالما ترصـــعت مناســـباتي السعيدة بهدايا تعكس شخصية من يهادونني وتلاقي حاجة مـــا

في نفسي.. قارورة عطر.. قطعة إكسسوار.. ثيـاب.. لكـن نادرا ما حصلت على كتب.. والأكيد انه ولا مرة حـصلت على كتاب بهذه القوة و هذا التأثير.. كنت وقتها قد وصـلت إلى مرحلة صارت فيها بؤر الضعف في نفسي ذئابـا تعـوي بداخلي.. وأنا أسكتها بمداراتها أحيانـا بالتحايـل أخـرى.. بالتعامي.. بالتغافل عنها.. لكن وأنا اقرأ الكتاب كنت أتجاسر واذهب إليها.. اقتـرب منـها.. لا أخـاف..لا أجـبن.. لا أتراجع..

واو مثل : ود

هذا الرجل الذي صار يقاسمني يومياتي منذ تسع سنين هـي عمر زواجنا.. كنت قد تعودت على مقابلته بشعور غير محدد أحقد عليه أحيانا لأنه يعجز أن يجعلني امرأة مكتملة ولا يبـادر بإعادة حريتي.. أشفق عليه أحيانا أخرى من مجـرد شـعوره بالعجز.. اكتشف بدهشة أنني قادرة على تحديد هذا الـشعور الآن.. لقد أصبح جزءا لا يتجزأ من حياتي وهو اشد تغلغلا في تفاصيل يومياتي مما كنت أتصور.. الآن يمكنني أن اعترف بـأن الشعور الذي يربطني به هو ما يسمى بالود.

ياء مثل : يوم

يوم عادي بالنسبة لملايين البشر.. استيقظوا مســارعين إلى التوشح بأمنية يوم ناجح.. أما أنا فطموحي أن أوفق في تسلق هذا اليوم في طريقي نحو بداية جديدة.. هذا هو أول يوم عمل لي كمعلمة صف محو الأمية.

غزلان الأماني

يسافر معه عمرها كجذع نخلة تتنازعها الأشـــواق حنينـــا للفروع الموغلة رحيلا ..

يمضي وعمره في رحلة الفروع إذ تراود حواف السماوات متوهمة أنها يوما ما ستثقب الغيم .. فينهمر الغيث..

تبثه الشوق وشوشات فيء تظله و ترتد إليها حارقة..

يخلفها الوعود مرة بعد مرة بعودة أبدا لا يحين أوانها..

كل عيد تتوازى أمنياتها و تفاصيل اعتذاراته عن إمكانيـــة اللقاء.. تختزل الخيبة في تنهيدة صغيرة صارخة الدوي كـــأعمق الجراح..

تقول له في صوت عراه المدى من نبراته ووفود كلماتهـــا لم تعد تبين.. كل ما أوغلت في الغياب اشتقت إليك أكثر..

يطعمها رجع صدى الصمت مرارة تسويف آخر..

تتوسل إليه بذكرى طفل كبر متسلقا على أيام صدرها..

تظل دائما على أهبة الأمنية والدعاء..

وتشعر مسبقا بلذة دافئة وهي تنظر إلى وهـــم ارتـــسامات دوامات بخار القهوة الموضوعة أمامه..

يبتسم لذكرى التفاصيل الجميلـــة الراميـــة جـــذورها في الذاكرة..

و يظل يسابق غزلان حلم الوفرة الباذخة الشاردة في تمنع ..

هذا العيد يقرر مفاجأتها بزيارة غير متوقعة..

تفاجئه هي بالتفاف الجيران حوله عند أول الشارع وعيونهم منكسة.

مصر ١٨ /١٢/٢٠٠٨

بلا عنوان

عندما صادر بابا حقي في الكلام.. أرسلت يدي تبحث في كيس الأماني عن الأحلام وحين تراجعت يدي ملتهبة ملسوعة صرخت من الفجيعة .. تذكرت.. قلت لماما أن اللصوص سرقوا كل الأماني وسرقوا عمري .. وأن حدود زمني لم تعد تتجاوز حدود المساء في الصباح و حدود الصباح في المساء.

عيني اليمنى تغافل بابا وعيني اليسرى على التلفزيون ..تظهر طوابير من النساء أمام محلات بيع العطر والورود..

ظهرت امرأة بشعرها القصير البرتقالي – و الله هكذا – حاولت أن أمد يدي لجهاز التحكم و لكنها لم تسعفني.. حاولت أن اصرخ في وجه المرأة أن اغربي لكن نظرة الرضا على وجه ماما ردعتني ..

تكشر امرأة التلفزيون عن أسنان صفراء قليلا في ابتسامة مصطنعة تنشر على قائمة طويلة من طوابير النساء اللاهثات وراء قوارير العطر و باقات الورد .. تزجي لهن التهاني بمناسبة العيد.. وتسبح بأسمائهن جميعا بحمد صاحب القصر.. اسمي كان بين الأسماء و كذلك اسم ماما ومعلمتي أيام المدرسة..

أشعر بالبرد .. اكتم البكاء .. في غفلة عن بابا وعن مـــدير التلفزيون ظهرت امرأة تلبس فستانا اســـودا مطـــرزا بلـــون الأرجوان.. تحمل ولدا صغيرا في عمر الأحـــلام.. يطاردهـــا جندي.. يأكل الإسفلت من لحم قدميها.. تحـــاول الوصـــول لعرض مناسب للشاشة .. تحاول أن تقول لنا شـــيئا.. يـــسبها الجندي.. يضربها بمؤخرة رشاشته.. تواصل الجري.. أرفع يمناي وأرسم شارة النصر في الهواء ..تنظر ماما إلي نظرة إشفاق..

تسقط المرأة ذات الفستان المطرز بالأرجوان على الأرض.. كاميرا التلفزيون تغمض عيناها دونها..يأمرني بابـــا بالـــذهاب لغرفتي للنوم.

و في الحلم رأيت أن الأرضة أكلت لائحة النساء الموعـــودة بعطر مصنع في المعامل ، و أن اسمي تحول فراشة وسط ملايين الفراشات موعودة بموسم ربيع العطر فيه من هبات الـــسماء.. ورأيتني مع جميع الفراشات ننقل نداء سيدة الأرجـــوان الـــتي سقطت إلى مليار معتصم.

زوجة ثانية

بداية:

تقفين في العتمة.. كان الليل قد نشر ظلاله القاتمــة علــى صفحة الكون.. تماما كتلك الظلمة التي افترشــت مــساحات قلبك.

- آآآآآآآآه يا امرأة موعودة لوحدة اليتم و وحــدة الترمــل ستبقين وحدك!تضيق الدنيا في عينيك حتى ليخيــل إليــك أن السقف أصبح أوطأ.ترفعين يديك.. تحسينهما كمادتين من ثلج تقعان على صدغيك.. والقلب تتسارع نبضاته والغرفة تــسروح في دوران يدوخك..تسقطين.

الحلم:

تنتابك موجة من ذلك الألم الرقيق الراقي الــذي مزاجــه أشواق الروح إلى مستقر لها و رغبة الجسد في الاطمئنــان إلى "أنت" إلى جانبه..يفتح الباب..تــشرعين القلــب و الــروح لاحتضان قدومه..تركضين نحوه.

الكابوس:

كن يجرين وراءك.. نساء كثيرات.. كن يحملن أسلحة خطيرة وتكشيرات وسباب وشتائم.. بعض الرجال كانوا معهن أيضا..بعضهم كانوا يحملون كتب قانون وعرائض وتوصيات مؤتمرات عالمية.. بعضهم كانوا يحملون في جيوبهم صور عشيقاتهم ورسائل غرام ماجنة كانوا جميعا يجرون وراءك.. وأنت تهربين.. يحاصرونك وأنت تتفلتين.. أوصلتك خطواتك إلى أعلى صخرة كبيرة.. التفت وراءك كانوا هناك جميعا تقودهم الزوجة الأولى.. هربت بعينيك منهم .. في لحظة ترددك بين الاستدارة والمواجهة أو القفز عميقا حيث الوحدة والبرد والظلام.. وقع نظرك على أخدود ساحق العمق.

ثقافة يومية:

تستيقظين في الغرفة..تفتحين عينيك للنور ورئتيك للهواء.. تلتقطين جريدة قصد استعمالها كمروحة.. يصدمك عنوان في الصفحة الأخيرة" الإفراج عن تونسي مقبوض عليه بتهمة التعدد بعد اعترافه بأن السيدة التي ضبط معها كانت عشيقته.

"على شاشة التلفزيون الذي كان ما زال يبث.. الابنة غير الشرعية للرئيس الفرنسي الأسبق تصرح " الرئاسة كانت تنفق علي أنا و والدتي.

الساعات الأخيرة

هذا اللقاء اليومي وجها لوجه مع الأخر في المرآة ، عنـــدما يتم الاعتراف بأنك لم تعد أنت مطلقا و في نفـــس الوقـــت لم تصبح أحدا آخر أبدا .

هذه المواجهة في المرأة مع انعكاس صورتك ،هذا التـــصميم العنيف على كشف ما يخبؤه هذا التعبير العتم في كـــثير مـــن الوقـــت ، بـــضربات موســـى الحلاقـــة دون جـــدوى .

– تجدين الوقت مناسبا للتفلسف؟

– هه سمعتني؟

– وهل كنت تكلمين نفسك؟

– كنت ألاحق فكرة فأدخلتني متاهة .قل لي ، هل كـــان آدم ملتح؟

على وجهه المكسو نصفه ثلجا بدت لك ملامحه وهي تقسو قليلا ، طيلة لحظة ، ثم ما لبثت أن رأيت في عينيه بوادر بسمة.

– لماذا هذا السؤال الغريب؟

– لا أظن أن شفرات جيلات كانت قد اخترعت بعد.

وهنا لم يعد يستطع أن يتمالك نفسه ، فضحك صراحة.

- كنت أمزح ما كنت أريد أن أعرفه هو ماهية و وقوفكم اليومي أمام المرآة شاهرين أسلحة خطيرة ضد مساحات الرجولة على وجوهكم.

- نفس السبب الذي يدفعكن كل يوم لصنع وجه جديد.

قالها وذهب، معتقدا أنه قام بدوره كمعلم وكأخ أكبر لديه الإجابة على كل التساؤلات الممكنة وله الحق في قول الكلمة الأخيرة.

هو هكذا ، دائما كان هكذا ، ولأنك تعرفينه ، تعرفين مقدار الطيبة المتأصلة فيه ، وكنت بطريقتك الخاصة تجعلينه يكتشف، بكامل حريته ، أن الكلمة الأخيرة يمكن أن تنسخ ، تعدل أوتضاف لها مادة صغيرة مكملة حدث ذلك ذات مرة ، إذ بعد سنة من التسكع في جامعة باب الزوار للعلوم والتكنولوجيا فهم أخيرا أن قراره بتوجيهك إلى شعبة علمية ليس بتلك الدرجة من الصواب فنقلك إلى معهد الآداب بجامعة الجزائر المركزية.وحدث ذلك مرة ثانية حينما تحصل لك ،بحكم علاقاته المهنية ، على منصب مدرسة لغة إنجليزية، في تلك المرة لم يمض وقت طويل قبل أن يفهم أن القروية القادمة من الهضاب جارّة وراءها تاريخا صغيرا من الحياء والخجل والسذاجة لم تكن لتتحمل شقاوة أبناء العاصمة خاصة في تلك السن الحرجة ، سن حب التمرد والمشاكسة.

تبتسمين لنفسك في المرآة ، كما لو أنك تعدينها بالأمان من تلك الأيام الصعبة التي قاومت فيها الفشل ، ثم تعايشت معه وفي النهاية استسلمت واستقلت من مهنة مرهقة تحسين أنك لم تخلقي لها ، بحركات سريعة مبللة بماء الفجر الثلجي النقاء ، تغسلين يديك ، تتمضمضين ، تستنشقين وتستنثرين في ثلاثيات متكررة ، تغسلين وجهك.

أشياؤك دائما تبدئينها هكذا.

ذلك الصباح حين اعتقدت أن مشاكلك قد حلت فقط لأنك أخيرا حصلت على عمل عند صاحبة الجلالة ، لم تكوني تمشين كما جميع الناس على قدمين ، بل كنت تخطرين على أطراف قلبك بين جنبات قاعة التحرير ، مكتب القسم السياسي ، القسم الفني ، ثم صفحة المجتمع حيث انضممت إلى فريقها ، مجموعة من الشباب النابض حيوية وحبا لهذا الوطن. "حتما ينحاز الصفصاف لضفاف الوادي ، وينحاز الثلج لقمة الجبل.. وتنحاز العصافير إلى أغصان الشجر ،فكيف لا ينحاز الإنسان إلى قطعة أرض فيها بعض هذا وكل هذا ؟" تعود لك هذه الكلمات ، وكأنها قطرات ماء تتسرب إلى جوف الأرض و تسقط في مغارة.

نفس الإحساس أنتابك بعد ظهر أمس عندما صعدت إلى الأرشيف ، كانت لديك رغبة ملحة في الإطلاع على ما

كتبت خلال هذه السنوات. واحدة ، واحدة طويت الصفحات التي شاركت في إنجازها ، عبارات تريد نفسها مرحة جذلة ، وأسلوب يدعي الرشاقة والخفة ، ولكن المقالات جاءت كلها حزينة .

يا لله كم هي حزينة! كتبت عن نساء متميزات ، عن مختلف شؤون الأسرة ، عن الاحتفال بالأعياد وعن جهاز العروس ، لكن في النهاية سؤال الواحد كان يحرق طرف لسانك ، وأسئلتك الأخرى تهرب كجيش احتلال منهزم لتفسح المجال لهذا السؤال الذي يصبح كل يوم أكثر إلحاح. كيف نجحنا في أن يصبح الوطن - هذه الصورة الجميلة - صورة مرعبة؟ إلى درجة أن أصبح القادم إليه يتوقع أن يجد على مشارفه راية ترفرف ، عليها صورة عظمتين وجمجمة؟

لماذا أصبح كل قادم من هنا مجرما حتى تثبت براءته ، ولن تثبت براءته و إن حاول. لأنه في أعين الآخرين "رجل أحاط رقبته بعدة عقود من الأسنان البشرية لقتلاه ، يلوث ملابسه دم إخوانه الذين صفاهم ، ممزوجا بدموع اليتامى والأرامل ، قرطاه عينا طفل أطاح به انفجار سيارة فخخها بنفسه".

تأخذين المنشفة ، تمسحين بقايا الماء عن وجهك ويديك ، لعلك بنفس الحركة كنت ترمين إلى مسح غشاوة الحزن عن قلبك أيضا.

لكنك تظلين حزينة لاشيء يعصمك من السقوط في هـــوة الحزن السحيقة ، والدتك والدفء الأسري وكـــل أشــيائك الثمينة تركتها هناك في الهضاب.. عندما قدمت إلى العاصـــمة ذات خريف.. صغيرة كنت يتجاذبك حنين الجذور إلى الأرض و رغبة الأغصان في بلوغ عنـــان الـــسماء. بـــين ظفيرتيـــك السوداوين الطويلتين كان يسكن عقل يدبر لإعـــادة ترتيـــب العالم.

أين هي منك قناعات الأمس وبديهياته ؟

الحرمان العاطفي هو الفلك الذي تدور حوله يومياتـــك في مدينة البياض المزعوم. لأن بقية الطاقة وفتافيت القلب المتبقية لم تعد تكفي سوى لرسم الظلال دون جوهر الأشياء.

يبدو أن القلب – قلعتك الحصينة الأخيرة – لم يعد كذلك بعد أن هبت عاصفة الشك وحطمت الأحلام والمثـــل العليـــا وأثرياتك الجميلة.

آه لو كان ممكنا إحراق جميع السفن و تمزيق جميع الـــدفاتر واختراع الرحلة من جديد،لأعـــدت – ســـاعتها – أيامـــك بتخطيط أخر، لزرعت مساحتها – رغم الجفـــاف – بـــألوان قوس قزحية. لو كان ذلك ممكنا .والأيام تمـــضي وصـــفحات العمر تتساقط بيضاء لا تكاد الأحداث تخط غليها سوى سطور خجولة من الفرح.

تنهين استعدادك بوضع المفكرة والقلم في الحقيبة. أحد مـــا قال لك إن الناس قسمان ، قسم يعيش وقسم يكتب.

تلك حقيقة أدركتها مؤخرا فعظماء البشر حينما يصلون إلى سن التقاعد ، يسجلون بطولاتهم في مذكراتهم الشخصية و في نهاية الأمر يكتبون الوصايا.

الكتابة هي فعل أخير قبل الموت..أنت أيضا تكتبين ،تكتبين بعمق وبكثافة كما لو أنك كنت تعيشين.

تغلقين الباب وراءك ثم.. لا تدرين لماذا كلمـــا هممـــت بنزول السلم .. استعدت تلك الصورة من كوابيس لياليـــك ، ترين نفسك تنزلين السلم بسرعة عجيبة تماما كما لـــو كنـــت تسقطين من عل.تخرجين من باب العمارة .. تردين على كـــل تحايا أطفال الجيران الذاهبين إلى المدرسة.تمـــشين في الزقـــاق. تحسين خطوات ماتتبعك.. تستديرين..هنـــاك رأيـــت نفقـــا طويلا.. ضيقا ومظلما انطلقت منه كرة من نار اتجاهك.

في ١١ مارس١٩٩٦

اعترافات لرجل من ضياء

١- في البدء:

تجيء القلب ، قطرة ندى سقطت من ربيع مؤجل موعود.. من أقاصي المدينة الفاضلة تأتي ، حلما يغمر يومياتي الرمادية ضياء ونورا . في دهشة ينهض القلب من غيبوبته غير مصدق ما يحدث !

يا الله كم كنت بحاجة لهذا الحضور البهي ، منيتي الكبرى ومعجزتي المستحيلة في لحظة إيمان استثنائية ترتفع يداي وتنبسط كفاي وأتحول إلى نقطة تسافر مسافة لحظة ضوئية بين ذؤابة القلب وسدرة المنتهى "شكرا لك يا الله" .

ما أعذب قدومك البهي ، وما أشهى تلك اللحظة الضياء التي حللت فيها كيانا يعيد رسم حدودي من جديد ، ويستصلح كل مساحات الجدب ويصيرها مساحات للخصب والفرح .

كل هذا الفضاء الذي كانت تسكنه أكوام الفراغ وسنوات ضوئية من الوحدة عادت إليه أسراب النجوم التي طالت هجرتها والكواكب عادت تلمع فيه بألف بريق .

كل هذه المساحات المحروقة صقيعا عادت إليهـا مواسم الندى والأعياد عادت ومعها طفولة القلب أكتشفها كل صباح حين أذكر هبة الله لي وحتى ذلك القلق الصغير عاد من جديد كما النورس يرقب اللحيظات الهاربة من بحر أيامي .

٢- الحلم :

هل تعرف نرسيس؟

أنا الآن أفهم ذلك الفتى الذي أحب انعكاس صورته على سطح الماء .

ليس ذنبه إن لم تكن هناك نفس قادرة على إرجاع صدى نفسه إليه..

ليس ذنبه أنه كان وحيدا.. والوحدة لا تعني أبدا خلو المكان من الناس ولكن وجودك بينهم دون أن يجرؤ أحد على اقتحام دائرة عزلتك .

نرسيس لم يكن أنانيا.

نرسيس فقط اعتبر نفسه ندا لذاته أحبها واكتفى بها .

لقد استطعت أن تعكس صورتي في مرآتك بكذا صدق وكذا صفاء أغرياني بممارسة فعل النرجسية معك

لا تغريني إلا التحديات الكبرى.. ولا تستهويني الأشياء إلا في صورتها المطلقة في عالم تحكمه قوى النسبية !

لقد استطعت أن تكون أنا.. وأن أكون أنت دون أن نتخلى عن كوننا أنفسنا.. وأن نكون ذلك في نفس الوقت ومعا .

كان ذلك هو حلمي في هذه الحياة.. كان صعبا جدا لكن لم يكن مستحيلا أمام الله أمد يدي إلى صدري وأخرج كل أشياء القلب وأنشرها أمامي.. أنفض عنها الغبار وبالثلج أطهرها من أدران غابر الأيام حتى تعود بكرا كما كانت أول مرة.. ثم أعيد ترتيبها من جديد

٣- الواقع :

لماذا لم أنقل لك الخبر السعيد هذا الصباح؟

هل طموحا أم جبنا نحن نعيش على المستقبل؟

غدا سأرى.. بعدها سأفعل.. سأمنحك عمري..

كل هذه التسويفات التي لا تنتهي تعكس عدم وضوح مفهوم الزمن عندنا .

حياتنا مشروع أفعال مؤجلة إلا ما تعجل به يد القدر..

عندما ألقاك بعد حين سأعلمك بالخبر .

و لأن الحياة مهما طالت قصيرة ، أنا أريـــد أن أعيـــشك بعمق.. أريد أن تستغرقني كل تفاصيلك حد التلاشي فيها دون أن أفقد معالمي الكبرى .

أريد أن أنسف كل هذه الحواجز البلهاء التي تعيق زحفنـــا نحو التوحد وتجعل من لقائنا مـــشروعا تنغـــصه انـــشغالات الاستمرار ومشكلة الامتداد .

آه يا أغلى بعضي أنت قادم كما قطرة الندى تتفـــتح لهـــا مسامي.. كما بشرى الخير يبتهج لها القلب بهجة طفولية .

ابتسامتك ارتسمت على شفتيك كما وعـــد بالأمـــان.. وذراعاك كما قوسين انفتحا واسعا لكي يحضنا أجمل الجمـــل المفيدة..

رفعت يدي عاليا ، لوحت لك وبدأت أركض نحوك.. ثم.. شرارة ألم متناهية في الصغر تأكل المـــدى نـــارا.. ومدويـــة كانفجار صغير تافه.. استقر في ذؤابة القلب.. هنـــاك حيـــث أسكن.. وسيل الطهارة في أزهى ألوانه جاء ليرسم قلبا كـــبيرا على الأرض.. سقطت عليه.. من حولي أسمع الناس يصرخون و يدخلون جحورهم.. ثم لم أجد نفسي .

شمعة في مهب الريح

أشعلي الشمعة!

أعاد عليك أخوك الأمر مرة أخرى في لهجة فيها الكثير من الحزم والتوسل ونفاذ الصبر بقدر كاف لجعلك تعجزين عن الإتيان بهذا الفعل البسيط ، إشعال شمعة .

ترى ماذا يفعل الآن ذلك الدكتور الجامعي الذي أحرجته بسؤالك الاستفزازي الذي ما إن قرأه حتى هب واقفا هل من المعقول أن نشعل شمعة في الظلام حتى هب واقفا "هل من المعقول أن نشعل شمعة في الظلام حتى نحدد دائرة تواجدنا للرصاص والسكاكين الصدئة؟،،

عاد و جلس ثم حاول أن يسرد عليك كرونولوجية العنف محاولا إقحام و تدجين كم هائل من الأحداث وإدخالها طواعية أوعنوة ضمن السياق.

تحدث عن الخوارج وخروجهم على الإمام علي بعد صفين، ثم اغتيالهم إياه ، محنة خلق القرآن والإمام أحمد ، مستخلصا إلى نتيجة أن تعارض المصالح البشرية اقتصادية كانت أوفكرية

أوحتى شخصية تجعل الصراع حتميا . فالأمر ليس بطارئ بـــل هو قديم قدم البشرية، أو لم يقتتل ولدا آدم؟

– ماذا تفعلين ؟ أشعلي الشمعة ، لمـــاذا لم أغلـــق عليـــك الغرفة؟

صحيح – تتذكرين – لماذا أنت هنا مع الرجال؟

لماذا لم يغم عليك فلا تصحين إلا يوم الحشر ، يوم تكلمين الله وتطلبين أن يسأل هؤلاء لما أ خافوك وروعوك ثم قتلوك .

لم أنت هنا؟ تعيدين طرح السؤال .

إنه والدك ،كان دائما يستدعيك لمجلس العائلة،خاصة العند اتخاذ القرارات المصيرية ، كان يثق في رأيك، ثقي في نفسك ، تحركي،تشعلين الشمعة ، تقدمينها لأخيك على يمينك، يقرب الفتيل منها ، ثم بسرعة يرميها من النافذة ، تنحرفين قلـــيلا إلى اليسار ، يقرب زوجك الفتيل من الشمعة ، ثم يرمي الزجاجة من النافذة .

– هكذا دائما عرفتك ، امرأة استثنائية ، قال زوجك .

تبتسمين و تمدين يدك لتربتي على كتفه في حركة تشجيعية له و لتطمين نفسك بوجوده إلى جوارك.

هذا الظلام الذي يلف المكان يجعل اللحظة تبـــدو وكأنهـــا مقتطفة من كابوس مرعب .

كل الأشياء أصبحت هشاشة السراب إلا الخوف تحسين وكأنك ترتطمين به عند أدنى حركة .

لسبب ما ، تذكرين غزوة الخندق ، ربما هذا الإحساس بالحصار وسط بقعة جهنمية يستهدفها وعيد الأصوات اللاآدمية ونيرانهم.

لكن الخندق الذي كان حصنا منيعا هو الآن طوق من نار.

تهزين رأسك ، كما لو أنك تفيقين من فترة غفلة ، تتذكرين عمال البلدية الذين جاءوا لتشجير الحي و تخضيره.

– هل الأشجار المغروسة اليوم تحيط بكل الحي ؟

تسألين الواقفين أمامك.

– كل الحي ماعدا جهة الوادي ، أجاب أخوك .

– لن ينقذنا أحد نحن محاصرون بالألغام.

– لن يقتحموا هذا البيت إلا على جثثنا ،قال زوجك.

– هات الشمعة ، قال أخوك ، مادا يده التي تحمل زجاجة حارقة نحوك.

– أحرقهم جميعا الظلمة الملاعين.

الظلام يلف كل شيء ، لا تكادين أن تميزي شيئا زاحفا نحوك كالأفعى يسعى متشبثا بماسورة المياه .

في اللحظة التي أطلقت فيها صرخة تحذير لن معك ، كانت رصاصة تأخذ طريقها لتستقر في راس أخيك ، يسقط .

رصاصة أخرى تأتي لتفجير الزجاجة الحارقة في يد زوجك.

تشيحين بوجهك ، لتحدي نفسك متورطـــة في أصـــعب المواقف وأشدها خطورة ، ماذا لو تقدم خطوة واحدة ومـــد يده؟

لا تريدين الاسترسال أكثر في تصور عواقب ذلك ، بسرعة وبخفة لم تكوني تظنين نفسك قادرة عليهما تنحنين ، تأخذين ملء كفيك من الرمل وترمينه في وجه المعتدي . المباغتة والألم أربكا حساباته ، سقط سلاحه ، تلتقطينه ، تمـــسكينه بكلتـــا يديك ، تضعين يدك على الزناد وكأنك تطبقين علـــى عنـــق المعتدي ، ولدهشتك الكبيرة ، تسمعين صدى طلقة وكأنهـــا تأتي من عالم آخر ، ثم ثانية و ثالثة ،يسقط جسد المعتـــدي ، يرتطم بطبقات الرعب والظلام اللذان يسكنان المكان.

البحث عن الحب

أنت وحيدة..حياتك جامدة.. باردة.. منـــذ أزل وأنـــت تبحثين عنه.. أصـــبحت الآن تفتقـــرين إلى ذلـــك الإيمـــان اللامشروط بوجوده .. كل المواقف التي ترقبينها تقـــول لـــك ذلك.. ذلك الصباح.. تلك المرأة و ذلك الرجل.. كان يمشيان معا.. يمضيان نحو بداية رسمية ليوم مكرر.. عند منعطف مـــا.. استدارت هي نحو اليمين.. اتخذت سبيلا آخر.. لم تودعـــه..لم يستبقها قليلا.. حتى أنه لم ينظر نحوها و لم تستدرهي إليـــه .. مشيا.. وذلك المساء ..حينما توقفت سيارة أمـــام مؤســـسة رسمية.. جاءت امرأة في غير استعجال.. في غير استبشار فتحت السيارة .. رمت بنفسها على المقعد كما نرمي عتـــادا قـــديما مللناه أو خردة لم نعد نحتاج إليها لم تلق التحيـــة.. لم يتـــسم هو.. لم يلمس يدها لم تنظر إليه فتحت النافذة و نظرت في لا مبالاة إلى الإسفلت العطب وإلى الأرصفة الوسخة وإلى الباعـــة المتجولين جاءتك برقية..عودي صديقتك ع .

كانت هناك هزيلة هزيلة .. أخذ المرض كـــل عنفوانهـــا.. استنزف كل ألقها لم يترك على وجهها سوى عينين كبيرتين.. كان هو هناك.. استعرضت في عينيـــه كـــل تـــاريخ المحـــبين

المفجوعين .. كان يجلس عند قدميها.. يمسك يـــدها وتـــدمع عيناه وهو يقرأ سورة الملك على سرير موتها وجدت الموقـــف الذي عنه كنت تبحثين.

ثرثرة في سماء بغداد

دولارات خضراء

كانت تتجول في سماء بغداد.

قالت إحداها بلغة جذلى:"أنا جئت من ماكدونالدز الرباط"

أعلنت الثانية دهشتها:"نحن جارتان إذن أنا من كوكاكولا الجزائر"

"أنا من بامبرز السعودية"

قالت ثالثة

أنا من نفط الكويت

وأنا.......

تعارفت الدولارات كلها.

وراحت تحتفل ببهجة تلاقيها.

تلك الليلة شوهدت في بغداد أنوار كثيرة في السماء .

....

في الصباح عثر على الكثير من جثث الأطفال الذين تجرؤوا ونظروا إلى السماء وتطفلوا على احتفال الدولارات.



مشهد عربي

مقطع أول:

رجال عرب يرغمهم جنود الاحتلال على إنزال سراويلهم على مرأى من كاميرات تلفزيونات العالم.

مقطع ثان:

فتاة تقرر أن تتنازل عن حقها في الحب والربيـــع والحيـــاة لتحيا القضية.. تصلي ركعتين وترتدي حزاما متفجرا..

مقطع ثالث:

رجال أمن عرب يرفعون هراواتهم عاليا ويهوون بها علـــى الشباب العربي الغاضب الذي التقت مطالبه في مقاطعة العـــدو وفتح الحدود أمام سيلهم الهادر.

مقطع رابع:

مشاهد عربي يشاهد كل هذا على شاشة التلفزيون.. يحس ضيقا في صدره وغصة في حلقه ودمعة تحرق مآقيـــه.. طيلـــة لحظة، ثم ... تستغرقه تفاصيل حياته.

القاتل يعود دائما لمكان جريمته

كان يجلس بجانبها.. يسندها بيمناه وتمسك بـــيسراه كلـــتي يديها.. قالت في حسرة والدموع تخط طريقها عبر وجنتيهـــا: "نصحه الطبيب و لم يرتدع."

دس يده في جيبه.. أخرج علبة.. أشعل سيجارة..

نظرت إليه في التياع.

أسماء

بداية ديسمبر:

بلغ الحمل شهره التاسع..حضرت حقيبتها و ضبطت قائمة الأسماء..فارس و حنين.

نهاية ديسمبر:

وضعت غزة و شهيدا.

فهرس

